المدى http://www.almadapaper.com - E-mail: almada@almadapaper.com ◆ العدد (1732) السنة السابعة - الاربعاء (24) شباط 2010

حـــــوارات

الرقيب بالنسبة له مات الى الابد وهذه واحدة من اهم حسنات المنفى

صلاح حسن: العراق يعيش خرابا ثقافيا بسبب العقلية الشفاهية

الشاعر العراقي صلاح حسن بمكانه الهولندي الراهن، يدور هنا في العراق؛ مشحونا بالألم والغصة، والشعور العارم بضيق جغرافيات بالكاد يبرر لنفسه إنتماءه فيها .. سرعان ما يحاصره الضيق منها، ويرمق طريق العودة بعين متحسرة الى مكانه الأول، فيرتد منه عائدا بخفي صدمة عراقية بامتياز. صلاح حسن المتمرد الحالم أحسبه، كما فعل كثيرون، شاعرا متفردا بفجيعته على ذلك المكان الأول، وهو يستلذ بـ"لعنة بابل"، ناقما على لعنة الموت المجاني وعطب القيم وخلل المعايير، حزينا على ما خربته أزمنة الظلام فيه. صلاح حسن، اليوم، وبعد ردح طويل من زمن الغياب، يصدمنا بيأسه، نعم انه يائس من بلد يتحول فيه الشرطي الى خاطف، والطبيب الى قاتل. يشكونا فقداننا الذاكرة، ويتهمنا بالنسيان السريع لما اقترفه الديكتاتور خلال العقود الماضية.. لكنه في النهاية يتمنى ان يتوقف نزيفه ونزيفنا. الحوار مع الشاعر صلاح حسن، كان لابد ان ينطلق من محطته البابلية، المكان الذي يتوق للعودة اليه..

صلاح حسن

حوار: علي عبد السادة

لعنة بابل

• لا اعرف كيف تحضر بابل فيك؟ كيف هي صورتها من نافذة لاهاي؟

– اشعر إنني لم أغادر بابل ابدا، هي حاضرة في كل مكان اذهب إليه. أحيانا اشعر أنني محاصر ببابل فهي بالنسبة لي اختصار لكل شيء، انها الهوية والذاكرة ويمكن ان اجد فيها كل ما احتاجه. انا أفكر ألان مثلما فكر الاسكندر المقدوني قبل اكثر من الفي سنة، ان تكون بابل عاصمة عالمية ومركزا ثقافيا وهذه ليست أحلام يقظة، فأنا لم اتوقف عن التفكير في بابل منذ سقوط الصنم وحتى هذه اللحظة. لدي افكار كثيرة لتحقيق مشروع " بابل عاصمة للثقافة " بالتعاون مع اليونسكو والاتحاد الأوربي. المهم اولا ان يتوقف النزيف ويحل الأمن وبعد ذلك يمكن ان نتحدث في المشروع. اسم بابل مكتوب في اهم وثيقة احملها وهي جواز السفر، موظف الجوازات في البلدية يسألني ان كانت بابل مانزال قائمة فأجيبه كما لو ان شخصا يشكك بوجودي" نعم قائمة كما اقف انا امامك "، في المهرجانات العالمية التي حضرتها في اوربا وامريكا اللاتينية يقدمونني مقرونا ببابل " ولد في مدينة بابل عام ١٩٦٠ " اما في كولومبيا فقد كان الجمهور ومعه مدير مهرجان مديين العالمي للشعر وبعد الانتهاء من القراءة يصيحون (صلاح حسن، ايراك، بابلون). اما في لاهاي فهناك فندق كبير وقد يكون اكبر فندق في لاهاي اسمه بابلون اراه يوميا تقريبا. اما حضور بابل في شعري فهو مثل اللعنة.

هولندا ولبنان تضيقان به

• في مناسبة سابقة قلت ان هولندا بدأت تضيق بك، وكذا الحال مع بيروت التي فكرت في الاستقرار فيها.. كيف تنظر الى تجربتك مع المنفى منذ عام ١٩٩٢؟

– يظن الكثير من الناس ان العيش في أوربا او أمريكا هو الجنة بعينها واعرف بعض الأصدقاء الذين جاءوا الى هولندا مؤخرا بصفة لاجئين كانوا يحسدوننا على العيش هناك، لكن هؤلاء الأصدقاء وبعد مرور سنتين على وجودهم في هولندا بدأوا يفكرون بالمغادرة الى اي بلد عربي بسبب الغربة وقسوتها والثقافة الغريبة التي يعيشون في ظلالها.
المنفى من اكثر التجارب قسوة على الانسان لأنه يجرد الفرد من هويته ومن لا هوية له لا وجود له تقريبا، ثانيا المنفى يسلخ الفرد عن ثقافته ويحوله الى نبتة في ارض غريبة. الحل الوحيد للشخص الذي يعيش في المنفى هو الاندماج في المجتمع الجديد الذي يعيش فيه والأنخراط في ثقافته وما عدا ذلك فهو يقود الى العزلة والكآبة والأمراض النفسية وحتى الانتحار. ضاقت بي هولندا بعد ستة أشهر من وجودي فيها ولكن لعدم وجود خيارات أخرى قررت ان اتعلم اللغة الهولندية وهي بالمناسبة من أزعج وأصعب اللغات الأوربية وان انخرط في ثقافة هذا المجتمع الذي بدا لي غريبا ومختلفا لانني كنت اعرف ان محنة العراق ستطول، وهذا ما حصل فعلا. لم يكن الأمر سهلا على الاطلاق ولكنني ظللت احاول، وبعد سنة من ذلك حصلت على جائزة دنيا الشعرية (حصل على هذه الجائزة الشاعر الاسباني روفائيل البرتي) ما جعلني معروفا للصحافة وبعض المؤسسات الثقافية التي بدأت تدعوني للمشاركة في الأمسيات الشعرية التي تقام في المدن الهولندية بين فترة وأخرى. هذه النقلة غير المنتظرة ساعدتني وكانت دافعا لمعرفة تاريخ هذا البلد والتعمق في فهم ثقافته عن طريق التعمق في دراسة اللغة ومعرفة اسرارها لان اللغة هي المنفذ الوحيد لفهم اي مجتمع. فوزي بالجائزة نفسها بعد سنتين كان حاسما للإسراع في تعلم اللغة لان الصحافة والتلفزيون بدأ بإجراء مقابلات معي عن الشعر والوضع في العراق. كنت في السنوات الأولى عندما ادعى للمشاركة في أمسية شعرية او مهرجان شعري اقرأ نصوصي باللغة العربية، لكن بعد ذلك بدأت اقرأ نصوصي باللغة الهولندية مباشرة وهذا كان جواز مروري الى الثقافة الهولندية. قبل أشهر كنت في زيارة الى بيروت هذه المدينة التي طالما حلمت ان أعيش فيها، بعد ان يئست من العيش في العراق.
صادف وجودي هناك انتخابات لاختيار رئيس للبرلمان وما ان انتهت الانتخابات حتى بدأ إطلاق نار شديد عرفت بعد يوم واحد من ذلك انه أدى الى مقتل صبي وجرح العشرات، اصبت بصدمة نفسية قاسية لان أحلامي تبخرت كلها في لحظة. في تلك اللحظة فكرت بكوستاريكا التي كنت مدعوا لمهرجانها الشعري قبل سنتين.. لقد عرضوا علي ان أبقى في كوستاريكا وقالوا لي كما يقال عندنا " سوف نعطيك امرأة " ! بيروت ضاقت ايضا لكنني لن أتراجع عن حلمي وسوف أعود مرة أخرى إليها لان بيروت تجمع الشرق والغرب والحرية التي في بيروت لا تجدها في اي مدينة عربية أخرى.

مات الرقيب

• احسب ان غياب الرقيب عن الأديب المنفي هو من حسنات المنافي، لكن هل تغيرت ثيماتك الشعرية فيها، هل هجرت الشأن اليومي، واقتحمت باب السؤال عن الوجود، الحياة، الموت. كما في قصيدة " بريد الكتروني الى الله " .

– الرقيب بالنسبة لي مات الى الأبد وهذه واحدة من أهم حسنات المنفى لكنني لا ابالغ اذا قلت لك ان ثيماتي الشعرية لم تتغير كثيرا بقدر ما اصبحت اكثر عمقا ووضوحا، فاليومي والمعاش تجده في نصوصي القصيرة المتأثرة بطريقة العيش الهولندية. انها واضحة وكثيفة وفيها اقتصاد لغوي وتعالج موضوعا واحدا ولا مجال للإضافة والحذف فيها. اما الافكار فتشعر انها غير مفكر بها مع اننا نعيشها يوميا. أتذكر في واحدة من الاماسي الشعرية قدمني عريف الحفل وطلب مني ان ان ابدأ بقراءة قصيدة محددة هي " صيف هولندي " قال عنها فيما بعد انها القصيدة الوحيدة حسب علمي التي تتناول الطقس في هولندا مع ان شعراءنا في هولندا مولعون بالطبيعة ولكن لم يكتب احد منهم مثل هذه القصيدة، هذا الشيء لم يفكر به شعراؤنا مع اننا نتذمر منه يوميا. قصيدة " بريد الكتروني الى الله " كتبتها بعد ان يئست من تحسن الوضع في العراق، شعرت بالعجز والاضمحلال ازاء ما يحدث من قتل يومي ومجاني للناس الأبرياء فقررت ان اخاطب الله مباشرة وما ان نشرت القصيدة حتى ترجمت الى خمس لغات هي الهولندية والانكليزية والفرنسية والايطالية والاسبانية.
بعد نشر القصيدة بأيام بدأت تصلني رسائل تهديد بأكثر من لغة خصوصا الفرنسية حيث نشر موقع مغربي باللغة الفرنسية تعليقات امتدت الى خمس وسبعين صفحة، تسعين في المئة من التعليقات تبشرني بالويل والثبور، اما باقي التعليقات فكانت تقف معي او تسخر من تعليقات المتشددين.
ثم قامت بعض الصحف والمواقع الراديكالية بنشر فتاوى بتكفيري والمطالبة بقتلي ما دعاني الى طلب النجدة من الشرطة الهولندية واضطررت للبقاء في بيتي لمدة شهرين خوفا من المتشددين.
إما النصوص الطويلة التي كتبتها فهي في صميم السؤال الفلسفي الذي يتناول الموت والحياة والوجود، لو تقرأ مثلا قصيدة " الخروج من أور " ستجد فيها مثل هذه الأفكار ان لم تكن هي كلها تتناول هذه الافكار وتعيد صيغتها بطرح جديد مستمد من حياتنا العراقية الخاصة. إنني أجد مقولة – أعذب الشعر أكذبه – فيها شيء من الخفة ولا تتفق مع الكتابة الحديثة، ليست الكتابة مسؤولية فحسب، ولكنها معضلة ايضا فأنت مجبر للاجابة عن اسئلة شائكة.

مقتل العودة

• عودتك الى العراق، بعد ٢٠٠٣، أضافت لسجل خساراتك خسارة أخرى؛ الوطن لم يعد هو الوطن، والانسان فيه مخرب على أكثر من صعيد. ترى هل شعرت بالاحباط؟ هل تبادر الى ذهنك سؤال عن الحلم الانساني، هل قلت في نفسك: يا الهي أين اذهب بأحلامي؟

– زيارتي الأخيرة الى العراق أصابتني في مقتل، الهوية العراقية تمزقت، وحين تتمزق الهوية لا يعود إي مواطن يعرف ما يريد وبالتالي سيتحول الى أداة صماء يتلاعب بمصيره الآخرون وهذا ما يحدث يوميا اذ يقوم الإرهابيون باستخدام الكثير من العراقيين الذين تمزقت هويتهم وفقدت ذاكرتهم في قتل إخوتهم من اجل حفنة من الدولارات او من اجل إيمان أعمى وضيق. يحدث هذا مع المواطن العادي ومع رجل السياسة في البرلمان والوزارات..
لم يعد مفهوم الوطن كما كنا نعرفه سابقا، لقد مسخت أشياء كثيرة ومن اهمها شخصية الانسان العراقي، العراق مستباح من قبل مخابرات العالم ودول الجوار تقوم بدور في زعزعة استقراره وإشاعة الفوضى فيه كلما لاحت بارقة امل في الافق. المشكلة في العراق الان اننا نملك سلطة ولكننا لا نملك دولة ولا نملك حكومة والكل يتربص بالكل من اجل الاستيلاء على السلطة مهما كانت الوسائل. العراقيون بلا ذاكرة هذه هي الحقيقة، لقد نسوا بسرعة ما اقترفه الديكتاتور المقبور خلال العقود الماضية وكيف جر العراق الى الهاوية.. انهم يعيدون تطبيق افكاره بدقة متناهية والغاية تبرر الوسيلة كما في تعاليم ميكافيلي.
كلمة إحباط أجدها غير معبرة بدقة عما اشعر به الان، اليأس هو ما اشعر به بقوة، اشعر باليأس عندما تتحول طبيبة نسائية في الكرادة الى خاطفة للنساء بدل مداواتهن وما اكثر آلام المرأة العراقية. هذه القصص رأيت بعضا منها وسمعت بعضا منها وتعرضت اليها في زياراتي السابقة واكثرها رعبا حينما حاول سائق التاكسي الذي يقلني الى تفجير نفسه بالحزام الناسف حين طلبت منه ان يوقف جهاز التسجيل الذي تنطلق منه اغنية تمجد المقبور صدام.

حداثة راسخة وجادة

• بقي ان اسأل، في ما يخص المنفى، عن تلك المقاربات التي حضرت في شعرك بين الخزين المحلي، عراقيا، وذلك المبذول شعرا في أوربا. هل تظن ان صنيعة الحداثة هناك اكثر جدة ورسوخا؟

– الحداثة في أوربا ليست وليدة اليوم، انها مستمرة منذ اربعمائة سنة لذلك هي جادة وتزداد رسوخا يوما بعد اخر من خلال الإضافات النوعية والتراكم المعرفي. ثم ان مفهوم الحداثة لا يرتبط فقط بالمنجز الثقافي والفني، بل يشمل كل مرافق الحياة العلمية والاجتماعية والفلسفية. بمعنى أخر ان الحداثة هي طريقة حياة والتطور الذي يحصل في الفن يرافقه تطور في الرياضيات وعلم الفضاء والالكترونيات ولا يقتصر على جانب معين. حتى أوضح الأمر أكثر أقول ان الفرق بين الغرب ونحن هو ان الغرب يعتمد التقنية والتدوين ونحن شفاهيون. لاضرب لك مثالا.. نحن لدينا في العراق الكثير من الشعراء والعلماء والأطباء المهمين لكن في المقابل لدينا شعب نصف أمي، كيف يمكن ان نقارن هذه المعطيات ؟ في الشرق لدينا عقلية شفاهية وفي الغرب لديهم عقلية تدوينية. في ما يتعلق بي فقد استفدت من الجانبين، استفدت من الا تقنية الشرقية والتقنية الغربية، الأولى خيال محض والثانية لتقنين هذا الخيال دون لجمه او تحجيمه. لكن تبقى للمحلية أهمية قصوى فهي أهم مصدر من مصادري لأنها تمثل غذائي الروحي، انا عراقي في النهاية وهو ما لا يمكن التنازل عنه او التفريط به ابدا.

الصوفية والحداثة

• اعتمدت في اغلب نتاجاتك على الملاحم واستدعاء النص الديني، لكن المفردات الحاضرة في شعرك، وإيقاعها الداخلي يفصح عن اجتهاد في مجاراة اللغة والافلات من قيودها؟ أ ثمة مزاوجة بين الصوفية والحداثة؟

– اي شاعر يفكر بكتابة ملحمة او ما يشبه الملحمة لابد ان يفكر بالملاحم القديمة التي أنتجتها الحضارات المختلفة على مر العصور. كما ينبغي عليه ان يفكر بالتقنية التي كتبت بها هذه الملاحم والأفكار التي تريد تقديمها الى الناس. المعروف ان اكثر الملاحم تتحدث عن أبطال لا يقهرون ويتمتعون بقدرة خارقة على انجاز أكثر الأفعال خطورة وغرابة. ما فعلته انا او الأصح ما حاولت ان افعله هو انني جعلت ابطال نصوصي من الناس العاديين الذين يبكون ويتألمون ويخطئون للإشارة الى الهشاشة الإنسانية. من جانب اخر يمكن للشاعر الحديث الذي يمتلك مشروعا شعريا ان ينجز مثل هذه الملاحم وقد فعلها الكثير من الشعراء بدءا بالسياب وادونيس وانسي الحاج ومحمود درويش. المهم هو المشروع الشعري وبدونه لن يكون هناك لا شعر حقيقي ولا ملاحم.
لقد ذكرت قيود اللغة ومحاولة الإفلات منها وهي قضية موجودة ومعقدة في الوقت نفسه، اللغة العربية لغة شاسعة وفيها امكانيات تعبيرية هائلة والشاعر الذي لديه إحساس عال باللغة يستطيع ان يفلت من الكثير من القيود. كيف ؟ عندما تتوفر للشاعر ذخيرة لغوية ومعرفية واذن موسيقية يمكنه استبدال بعض المفردات وحتى الجمل لكي تتوازن الجملة الشعرية دون ان تفقد ايقاعها الداخلي ولا جمال الصورة الشعرية فيها. هناك مسألة اخرى في غاية الاهمية هي قضية الشكل البصري للنص، طول الجملة الشعرية او قصرها، توزيع الابيات، علامات الترقيم. كل هذه التقنيات تساهم الى حد كبير في اثراء النص وفهم طبقاته الصوتية والبصرية.

• كيف اجتزت الدعوى إلى مقاطعتك بدعوى "اهانتك" الذات الإلهية؟ طبعا بعد نشرك قصيدة (بريد الكتروني الى الله) في (الصحيفة الاسبوعية) المغربية في زاوية تحت عنوان (المركب السكران)؟

– كما تعرف ان الذين قاطعوني وكفروني لم يفهموا القصيدة مع انها قصيدة واضحة تماما. انا قلت في هذه القصيدة انكم تقتلون الناس باسم الله، انتم تريدون ان تحلوا محل الله. ويبدو ان ذلك اخافهم لانه يعري سلطتهم الكاذبة الفضفاضة. لقد حاولوا مقاطعتي لكن النتيجة جاءت معكوسة تماما، فالقصيدة نشرت في عشرات المواقع وكما قلت ترجمت الى خمس لغات.

سلطان المسرح

• قارئك يستطيع ان يشم رائحة المسرح في الشعر.. أثمة سلطان مسرحي يلاحقك حتى في القصيدة؟

– قد لا يعرف الكثير من القراء انني بدأت ممثلا، واول دور لعبته عندما كنت في السادس الابتدائي. ثم إنني درست المسرح في اكاديمية الفنون الجميلة وكتبت اكثر من عشرة نصوص مسرحية قدمت في اوربا والوطن العربي وما زالت تقدم. اذن فالمسرح لا يغيب عن بالي وانا اكتب القصيدة، خصوصا القصيدة الطويلة لان القصيدة الطويلة بدون حبكة درامية متصاعدة ومنفعلة لا يمكنها ان تصمد طويلا. بعض نصوصي الطويلة اعدت للمسرح اكثر من مرة بسبب بنيتها الدرامية. دراستي للمسرح علمتني كيف اكتب نصا طويلا ناجحا، نعم المسرح موجود في أعمالي بقوة ويسعدني ذلك.

الشعر لا يصلح للترجمة

• لك قصائد مترجمة الى لغات عديدة.. كيف يتذوق الأوربي الشعر بشكل عام، والشعر العربي المترجم الى لغاته؟

– لا يصلح اي شعر للترجمة حتى لو كان شعرا جميلا والمشكلة تتعلق بعملية الترجمة ذاتها لا بالشعر نفسه. الأوربيون لديهم نظرة خاطئة عن الشعر العربي بسبب تأثير الف ليلة وليلة الكبير، اول شيء يفكر به الأوربي – حسب خبرتي – هو موضوع القصيدة، اي الافكار لان لديهم فكرة مسبقة عن العالم العربي – الإسلامي. لكن هذه النظرة بدأت تتغير بسبب وجود الكثير من الشعراء العرب الذين يعيشون في اوربا في السنوات الاخيرة او الذين يدعون لمهرجانات اوربية. انا شخصيا كنت أمس ذلك من خلال مشاركاتي وكانت تطرح علي بعض الاسئلة المحرجة من قبل الجمهور كنت اجيب عليها بشيء من التوتر وكنت اقول لهم في بعض الاحيان ان الشعر العربي اكثر اهمية من الشعر الاوربي وهذه حقيقة. هناك اهتمام بالشعر العربي ولكن الاوربيين كما قلت ليست لديهم فكرة واضحة عن الشعراء الجيدين الذين من الممكن ترجمة اعمالهم الى اللغات الاوربية باستثناء ادونيس ومحمود درويش اللذين يهيمنان على المشهد الشعري العربي في اوربا.

صدمة قاسية

• المشهد المحلي أصبح أكثر تعقيدا وتشابكا، البعض من المثقفين الحالمين اصيبوا بالإحباط، وأعادوا أحلامهم الى قرابها. كيف هو العراق اليوم بعين صلاح حسن؟

– قلت في البداية ان الزيارة الأخيرة كانت صدمة قاسية بالنسبة لي، لقد جئت لكي ارتب وضعي من اجل العودة النهائية للوطن حتى انني قمت باصلاح بيتنا القديم في القرية في الحلة كحل مؤقت لكن الوضع السياسي المريع والصراع على السلطة والإرهاب وأشياء أخرى كثيرة جعلتني كما تقول انت اعيد أحلامي الى قرابها على قلتها. سأروي لك واحدة من ابسط المشاكل كما تبدو لاول وهلة، نحن المثقفين الذين عشنا في الخارج غير مرحب بعودتنا الى الوطن لان الكثير من المثقفين في الداخل يعتقدون اننا سنستولي على وظائفهم وهذا منطق غريب للغاية وهو انعكاس لما يحدث في الساحة السياسية.
هنالك شيء غير مفهوم يحدث في العراق الان هو ان الخطأ اصبح هو القاعدة. لقد صدر قانون عن المهجرين يحق بموجبه ان يحصل المهجر على قطعة ارض وحين راجعت دوائر الوزارة طلبوا من البطاقة التموينية وحين جلبتها لهم بعد جهد جهيد قالوا ينبغي ان تكون البطاقة باسمك لوحدك. عدت الى الدائرة المختصة فقالوا لي القانون يقول انك ينبغي ان تكون ضمن عائلة ولا يحق لشخص لوحده ان يحصل على بطاقة. وهكذا ضاعت قطعة الارض التي كانت الامل الوحيد لي لبناء بيت في العراق.

نهضة عسيرة

• الجميع يتحدث عن نهضة ثقافية في العراق، لكن تشظي الصورة السياسية يجعل أمر صناعة تلك النهضة صعبا للغاية. ما السبيل الى تلك النهضة؟

– من يقول ذلك أما انه غبي او يتغابى، كيف يمكن لبلد تحت الاحتلال ان ينهض ثقافيا ؟ كيف يمكن لبلد يعيش حربا أهلية ان ينتعش ثقافيا ؟ كيف يمكن لبلد يحصد الإرهاب فيه يوميا عشرات الأبرياء ان يقال عنه انه يعيش مرحلة نهوض ثقافي ؟ ألم اقل لك قبل قليل ان الخطأ أصبح في العراق هو القاعدة ؟ لا يمكن ان تحدث نهضة ثقافية بدون امن واستقرار سياسي راسخ، كما لا يمكن ان تحدث النهضة الثقافية بدون ماء صالح للشرب وطاقة كهربائية مستديمة بالإضافة الى الحراك الاجتماعي والتواصل الإنساني. ما نراه من مظاهر ثقافية لا يعكس الحس النفسي العام عند المبدع او الجمهور لأنها مظاهر طارئة وعشوائية ولأنها تجري في ظروف غريبة. اضرب لك مثالا : كيف يمكن لي انا المواطن العادي الاستمتاع بعرض مسرحي يقدم في الحادية عشرة صباحا ؟ اولا ينبغي علي ان استيقظ في ساعة مبكرة لكي استطيع ان أصل الى مكان العرض في الوقت المناسب لان الازدحام في الشوارع مرعب. هذا اذا كنت مستعدا نفسيا لمشاهدة العرض. ثانيا من يضمن لي ان المكان الذي سيقدم فيه العرض لن يتعرض لهجوم ارهابي ؟ من يضمن ان الكهرباء سوف لن تنقطع أثناء العرض بحيث استطيع ان استمتع بالعرض الى النهاية. باختصار ان الانسان الخائف لا يستطيع ان يتفاعل مع مثل هذه النشاطات العشوائية مهما كانت. العراق يعيش خرابا ثقافيا بسبب هذه العقلية الشفاهية.

اوراق

مباهج القراءة

محمود عبد الوهاب

فجرُ معرفتنا بدأ بالقراءة، قراءة عامة من دونما اختيار. كنّا نبحث عن ذواتنا خارجها، مثل طفل يكسر لعبته، ويطيل التحديق إلى داخلها المحشو بالقطن والأسلاك، بحثاً عشوائياً عن الصفير الرتيب الذي يأتيه بلا انقطاع كلما ضغط على جسد لعبته بيديه. الطفل، هنا، يجهل أنه يبحث عن العلّة أو السبب، إنه يستجيب، بعشوائية أيضاً، لذاته في صفير اللعبة، وهو الكشف " القَبْلي " للمعرفة في أدنى مستويات أنساقها. طفولة المعرفة، هي معمار الخبرة الذي سيشيّد كلما كانت الخبرة تراكماً معرفياً، ووعياً بالحياة، وتنظيماً لها. ما كان يرفع من شأن قراءتنا، آنذاك، لغطُنا بما نقرأ، واستباقنا الأقران بما نقرأ، وادّعاؤنا بفهم ما نقرأ، وتمثّلنا ما نقرأ في سلوك لا يخلو من أوهام، في هذه الحالات الأربع، لغطاً واستباقاً وادّعاءً وتمثلاً، تتوهج الذات بفتائل المعرفة المبكّرة. ما أكتبه الآن، ليس تاريخاً منضبطاً لتحوّلات القراءة ومباهجها، إنه استبطان قائم على مقدار ما أمسك به من حقيقة الاستذكار والمعرفة، وعلى مقدار ما أعجز عن إمساكه، استبطاناً أو لغة. في مرحلة تالية، كنّا نقرأ ما كان الأسنُّ منا يرشدنا إليه. قرأنا المنفلوطي وجبران والمهجريين والنثريين الرومانسيين، وفي مرحلة لاحقة، قرأنا طه حسين وتوفيق الحكيم ونجيب محفوظ وسلامه موسى، وكان كل ذلك حلماً تعويضياً عن جدب الحياة. في مدرستنا كان أمين المكتبة رجلاً قصير القامة محدودباً، تقبع على رأسه دائماً سدارة سوداء، تبدو لطولها وقصر أمين المكتبة كأنها امتداد لقامته، وكانت ارشاداته طريقاً رحباً إلى القراءة المجدية. رواية " أرض البشر " للكاتب الفرنسي " إكسوبري "، ورواية " صمت البحر " لـ " فيركور " أثّرتا فينا، نحن جيل الخمسينيات، كنّا نستظهر عباراتها وسياقاتها ببهجة، وكنّا نردد ما استهلّ به إكسوبري روايته : تعلمنا الأرض عن أنفسنا أكثر مما تعلمنا الكتب، ذلك لأنها تقاومنا. من صفحات تلك الروايات والكتب استقامت قاماتنا، وبدأت مرحلة الاختيار لنوع القراءة والكتاب. كنت أعيش مع أبطال رواية إكسوبري، وضوء المصباح المغبّر الشحيح يترجرج على صفحات الرواية، وأنا مع اكسوبري في طيرانه البريدي، وفي مطاراته، وفي مغامراته، وفي الصحراء التي سقطت فيها طائرته، ومع معاناته في العطش والجوع وترقّب من ينجده في محنته تلك . القراءة ليست كتاباً ورقياً، إنها إضافة إلى الحياة، وامتداد لها، وإثراء بالتعويض عمّا لا يمكن أن يُنال من الواقع. و حافز القراءة، كما يذكر الكاتب السوسيولوجي "سكاربت"، غالباً ما يتولد من اختلال بين القارئ وواقعه، اختلال ينبعث من عدم الرضا بالواقع، ذا ما ذكره "هيجل" أيضاً في أن السعادة تأتي من المعرفة التي يُمكنها وحدها أن تصالحنا مع الواقع، ويشير سكاربت أن من حوافز القراءة بلوغ قيم عليا غير متحققة في حياة القارئ، أو لطموح ثقافي، إنها لجوء ضدّ لا معقولية الحياة، و يذكر سكاربت أيضاً أن وظائف القراءة متعددة، فمعظم ذوي الاختصاص مثلاً، لا يميلون إلى قراءة اختصاصاتهم، وفي مثل هذه الحالة يؤثرون ما هو ممتع في قراءتهم، وكبار السنّ غالباً ما يكون الكتاب المفضّل على مقربة من أسرّتهم، ويوظف القراءة عدد من القرّاء توظيفاً علاجياً للحالة النفسية التي تنتابهم، وتُتاح للمريض، بسبب عزلته، قراءات قد لا تتكرر في حالات شفائه، وقد يقتني الكتاب من يتظاهر بالثقافة، وهو حافز تفاخريّ، غير أن الأدباء والفنانين يرون أن الكتاب غاية لاكتساب ثقافة تستغرق الوعي كلّه، والإحاطة بالجديد والحديث من المعرفة، وهو حافز وظيفي. كرّس " البرتو مانغويل " كتابه " يوميات القراءة " لتأملاته قارئاً شغوفاً، يرى أنّ القراءة تضفي واقعية على الأوهام التي يرويها الكتاب لقرائه، ويحملهم على أن يعيشوها حقيقة. مباهج القَراءة، تجعل من شخص القارئ شخصاً مختلفاً، فالقراءة عامل تغيير، والكتاب مثل النهر " لا تدخل فيه مرتين "، لكنّ تلك المباهج كالكهف المكتنز، لا يفتح بابه إلا بكلمة السرّ، وكلمة السرّ هنا، قدرة القارئ على التعلم، وإدراك ما يقرأ. بعد فقده بصَره، كان بورخس يبكي، وهو يصغي إلى ما تقرأ له أمه، كانت تسأله: لماذا تبكي وكان بورخس يجيب: أبكي لأنني أفهم.